بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان
العدد ١ (خريف وشتاء ١٤٣٠ - ١٤٣١ هـ. ق/ ١٣٨٨ هـ. ش)، ص ٨٩ - ١٠٥

مظاهر التقليد والإبداع في *مقامات* الحريري[١]

شاكر العامري*

الملخص

في القرن الرابع الهجري تسللت الفنون البديعية إلى النثر بعد أن كانت منحصرة بالشعر، وظهر ما عُرف بالتصنيع الذي أصبح سمة القرن. وفي النصف الثاني منه ظهرت المقامات بحلتها الجديدة التي ألبسها إياها بديع الزمان الهمذاني، فقد جعل الهمذاني مقاماته تدور حول الكدية والمكدين وحيلهم، وجعل لها راوياً ثابتاً، وبطلاً ثابتاً كذلك، وأغرقها بالمحسنات اللفظية والمعنوية، وجعل هدفها الأصلي هو تعليم الناشئة أصول الكتابة الأدبية، أو ما نسميه اليوم بالنثر الفني.

وبعد مرور قرن ونيّف على ولادة الهمذاني، ولد في البصرة أبو محمد الحريري الذي اقتفى أثر الهمذاني وسار على خطاه، سواء في الأسلوب أو في الهدف والغاية، ولكنه كان الطالب الذي بزّ معلّمه وتخطّاه. وإذا كان التصنيع من سمات عصر الهمذاني، فإن التصنّع هو من سمات عصر الحريري، وإذا كان الهمذاني قد أغرق مقاماته بالمحسنات البديعية، فإن الحريري قد غالى في إغراق مقاماته بالبديع. وإذ يعترف الحريري- محافظاً على الأمانة العلمية- بتقليده للهمذاني وبفضله عليه، إلاّ أنه- في الواقع- أضاف إضافات أساسية إلى المقامة وألبسها حلّة جديدة تختلف كثيراً عن حلّتها القديمة، وإن حافظت على كثير من سماتها الأساسية. فقد نوّع الحريري موضوعاته ونظّمها، وأطال مقاماته وزوّقها واهتمّ كثيراً بمسائل التعقيد اللفظي والأحاجي اللغوية التي يعتبرها مهارة ومقدرة. ولعل هذا هو أهم ما يميّز *مقامات* الحريري عن *مقامات* الهمذاني، حيث إنها كُتبت في عصر التصنّع، فيما كُتبت الأخيرة في عصر التصنيع. ولقد اشتهرت *مقامات* الحريري في حياته، إذ أجاز بخطّه «٧٠٠» نسخة منها، عدا ما لم يُجزه، وقد وصلت إلينا كاملة، رغم قلتها عدداً (٥٠ مقامة)، بالمقارنة إلى *مقامات* الهمذاني التي بلغت الأربعمائة، ولكن لم يصل منها سوى بضعة وخمسين مقامة. ولعلّ ما اتسمت به *مقامات* الحريري يفسر لنا شدة إقبال المختصين عليها آنذاك، بحيث نُسيت أو كادت، مقامات الهمذاني.

المفردات الرئيسية: المقامات، البديع، الراوي، البطل، التعقيد اللفظي

---

١. تاريخ التسلم: ١٣٨٦/٣/٦ هـ. ش (٢٠٠٧/٥/٢٧م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٦/٩/١٣ هـ. ش (٢٠٠٧/١٢/٤م).

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة سمنان

المقدمة

الحمد لله حمداً لا أول لأوليته ولا آخر لآخريته، والصلاة والسلام على قادة البشر محمد وآله أولي النهى والعبر. وبعد فإن الكتابة عن *مقامات* الهمذاني والحريري مملوّة صعوبة ولا تخلو من متعة، فهو أمر يتطلب قراءة متمعّنة دقيقة لمقامات كل منهما. ومما لا شك فيه أن دراسة لمواضع الإبداع والتطور في *مقامات* الحريري مقارنة بـ *مقامات* الهمذاني تحتاج إلى وقت وفير، ومجال كبير، وهو ما لا يتوفر في مقالة واحدة. وإن الخوض في هذا الأمر يشبه الخوض في بحر لُجّي لا يُرى له ساحل ولا يُدرك له قعر، فيه ظلمات ورعد وبرق، أمواجه كالجبال، والخروج منه بسلام محال. ولكنني ـ ومن باب ما لا يُدرك كله لا يُترك جله ـ قررت الاغتراف من لجّته غرفة بيدي، لعل ذلك يشفي بعض الغليل.

لقد حظيت *مقامات* الحريري، التي انتهى من إنشائها عام «٥٠٤هـ»، باهتمام المختصّين وأشهر من شرحها ثلاثة من كبار اللغويين القدماء، وتلك الشروح هي شرح المطرّزي (٥٩٠هـ)، وشرح العكبري (٦١٦هـ)، وشرح الشريشي (٦١٩هـ). كما أنها تُرجمت إلى عدد من اللغات الحيّة، كالفرنسية والإنجليزية والألمانية والفارسية وغيرها (الحريري، د. ت، ص ٧).

ارتكزت المقالة على ثلاثة محاور:

- التعريف بالمقامة ونشأتها؛
- والتعريف بالهمذاني باعتباره المبتكر لها، وبالحريري باعتباره المطوّر لها؛
- وذكر عدد من مظاهر الإبداع لدى الحريري في مقاماته.

والملاحظ هو أنني لم أذكر مظاهر التقليد لدى الحريري باعتباره واحداً من محاور المقالة وذلك بسبب كون *مقامات* الحريري بحدّ ذاتها تقليداً لـ*مقامات* الهمذاني، الأمر الذي اعترف به الحريري وكرّرتُه كثيراً خلال المقالة. والله أسأل أن يوفقني في مسعاي، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ما هي المقامة؟

جاء في *لسان العرب* ما يلي:

والمَقام والمَقامة: المجلس. ومَقامات الناس: مجالسهم؛ قال العباس بن مرداس أنشده ابن بري:

فأيّي ما وأيُّك كان شراً ... فقيدَ إلى المقامة لا يراها؟[1]

ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس مَقامة؛ ومنه قول لبيد:

ومَقامةٍ غُلبِ الرِّقابِ كأنّهم ... جنٌّ، لدى بابِ الحصيرِ قيامُ

الحصير: الملك ههُنا، والجمع مقامات؛ أنشد ابن بري لزهير:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهُم ... وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ[2]

---

١. أيُّ شخصٍ منّا أو منكم كان من أصحاب الشر حتى يُقاد إلى المجلس معصوب العينين؟

٢. يصف زهير بن أبي سلمى مجالس قوم وأنديتهم بأنها ينتابها، أي: يجيئها نوبة بعد نوبة؛ القول ثم يتبعه الفعل، أي: إن القول الذي يلقى في النادي يعقبه عمل به، ولا يبقى مجرد لقلقة لسان، أو حبراً على ورق. وقد وصف الجالسين في النادي بصباحة الوجوه وحسنها، وهو قد يقصد المعنى الحقيقي لصباحة الوجه وحسنه، أو المعنى المجازي، أي: الكرم ودماثة الخلق وطلاقة الوجه.

ومقامات الناس مجالسهم أيضاً. والمقامة والمقام: الموضع الذي تقوم فيه» (ابن منظور، ١٩٩٢م، مادة «قام»).

وقال في *المعجم الوسيط*:

أقام (بالمكان): لبث فيه واتخذه وطناً». وقال في موضع آخر: «المقام: موضع القدمين والمجلس والجماعة من الناس. والمقامة: الجماعة من الناس والمجلس والخطبة أو العظة أو نحوهما، أو قصة قصيرة مسجوعة تشتمل على عظة أو مُلحة كان الأدباء يُظهرون فيها براعتهم (مجمع اللغة العربية، ١٩٩٦م، مادة «قام»).

وجاء نحو ذلك في *المعجم المجمعي* (بقّال، ١٣٧٦هـ. ش، ج ٥، ص ١٤٣). وجاء في *لغت‌نامة* ما يلي:

مقامه: جای نشستن. مجلس: من بر گوشه‌ای از آن هنگامه و بر طرفی از آن مقامه متفکر آن مقالت و متحیّر آن حالت بودم (*مقامات حمیدي*، چ اصفهان، ص ١٧) ... خطبه منظوم ومنثور. خطبه یا سخنان ادبی به نثر فنی ومصنوع توأم با اشعار و امثال و مشحون به صنایع بدیعی اعم از لفظی و معنوی، مانند مقامات بدیعی و مقامات حریری در عربی و مقامات حمیدی در زبان فارسی. ج مقامات: این هر دو مقامه سابق و لاحق که به عبارت تازی و لغت حجازی ساخته و پرداخته شده است اگرچه بر هر دو مزید نیست، اما عوام عجم را مفید نه (*مقامات حمیدي*، چ اصفهان، ص ٤) (دهخدا، ١٣٨٣هـ. ش، مادة «مَقامَه»).

كما جاء في موضع آخر منه ما يلي:

مقامات: ج مقامة ... حکایات عربیه، چنانکه *مقامات حریری* و *مقامات* بدیعی و *مقامات* هندی و *مقامات* عربیه. (*غیاث*) (*آنندراج*). مکالماتی که دارای محاورات مجالس و محافل تازیان شد، مانند *مقامات* حریری و *مقامات* بدیعی (*ناظم الاطباء*). خطبه‌های منظوم و منثور، مانند *مقامات* حریری، و تسمیه کلام به مقامات از باب موضعی است که در آنجا گفته می‌شود (*از أقرب الموارد*). آن وقت که خواجه فقیه رئیس ابو عبد الله محمد بن یحیی به ریاست بیهق آمد فضلا مقامات انشاء کردند و یکی از این مقامات این بود که خواجه ابو عبد الله الزیادی ... گوید جعل الله ... (*تاریخ بیهق*). تا وقتی به حسن اتفاق در نشر و طی آن اوراق به مقامات بدیع همدانی و ابو القاسم حریری رسید (*مقامات حمیدي*، چ اصفهان، ص ٤) ... (دهخدا، ١٣٨٣هـ. ش، مادة «مَقامات»).

وقال في موضع آخر فيه:

مقامة: جای نشستن. ج مقامات (*منتهی الارب*) (*آنندراج*). مجلس و محل نشستن (*ناظم الاطباء*). مجلس. ج مقامات (*أقرب الموارد*). گروه از مردم (*منتهی الارب*) (*آنندراج*). جماعتی از مردمان (*ناظم الاطباء*) (از *اقرب الموارد*). بیان سرگذشت به شرح واقعه: المقامة في معنى ولاية العهد بالأمير شهاب الدولة مسعود وما جرى من أحواله (*تاریخ بیهقي*، چ فیاض، ص ١١١) (دهخدا، ١٣٨٣هـ. ش، مادة «مَقامة»).

وقال محيي‌الدين عبدالحميد (د. ت):

المقامة في أصل اللغة المجلس يجتمع فيه الناس، ثم استعملها الأدباء في الخطبة أو العظة، وكأنهم أرادوا أن الشأن في هذين إلقاؤهما في الأندية والمحافل، ثم خصّوهما بالقصص التي يتحدثون بها على ألسنة قوم يسمونهم رواة - إن حقيقةً أو خيالاً - ويجيؤون فيها بالأغراض المختلفة (ص ١٠، الحاشية).

والواقع ـ كما لاحظنا في ما مرّ ـ أن معنى المقامة قد تطور من المعنى اللغوي للكلمة إلى المعنى الاصطلاحي. فهي في الأصل موضع القيام، ثم استُعملت للمجلس، ثم للجالسين فيه، كما أن المجلس يُطلق على موضع الجلوس وعلى الجالسين فيه كذلك. وكذا أُطلقت المقامة على الأماكن التي تخصص للخطباء والقصّاصين في المجالس والأندية، كما يقال لها مجلس كذلك. وأُطلقت كلمة المقامة ـ والمجلس كذلك ـ على الخطبة وشبهها التي تُلقى في المجالس. وبهذا نرى أن كلمة المجلس تُرادف كلمة المقامة، وهذا مجاز مرسل علاقته الكلية، من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء، إطلاق المقامة والمجلس وإرادة ما يُلقى فيهما. وهذا ما جاء في شرح *مقامات* الزمخشري وإن لم يكن على الترتيب السالف الذكر. قال:

المقام والمقامة، كالمكان والمكانة: موضع القيام، فاتُّسِع فيهما حتى استُعملا استعمال المكان والمجلس، وقال الله تعالى: ﴿خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديّاً﴾ (مريم ١٩ : ٧٣). **وقال نهشل بن جري الدارمي:**

إنا نظرنا في المَقامةِ مالكاً ونظرَ المسافرِ: أينَ ضوءُ الفرقد؟[١]

وقال المسيّب بن غلس:

وكالمسكِ تُرْبُ مَقاماتِهم وتُرْبُ قبورهم أطيبُ[٢]

ثم قيل لما يُقام به فيها من خطبة أو شبهها مقامة، كما يقال له مجلس. ويقال مقامات الخطباء ومجالس القصّاص، كما يُسمى الجالسون فيها مقامةً أو مجلساً. قال زهير:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهُم وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ

وقال مهلهل:

و نُبِّئتُ أن النارَ بعدكَ أوقِدَتْ واسْتَبَّ بعدَكَ يا كُليبُ المجلسُ[٣]

(الزمخشري، ١٩٨٧م، ص ١٦، الحاشية)

وقال أنيس المقدسي نقلاً عن صبح الأعشى: «**المقامات جمع مقامة، وهي اسم للمجلس أو الجماعة من الناس، وسميت الأُحدوثة من الكلام مقامة لأنها تُذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة لسماعها**» (المقدسي، ١٩٧٩م، ص ٣٦٠).

ولكن المقامات التي نحن بصددها أبعد من هذه المعاني لكلمة المقامة أو المجلس ـ وإن أشار اليها الدكتور محيي الدين عبد الحميد ـ فهي لا يشاركها في معناها الجديد شيء آخر ولا يكون المجلس مرادفاً لها، إذ إن المقامة بهذا المعنى لها خصوصيات ومميزات كشفت عنها *مقامات* الهمذاني والحريري، أهمّها أن موضوعها المتكرر يقوم على الكدية، وأن كل مقامة فيها تحتوي على راوٍ، هو عيسى بن هشام لدى الهمذاني، والحارث بن همام لدى الحريري؛ وبطلٍ، هو أبو الفتح الإسكندري لدى الهمذاني، وأبو زيد السروجي لدى الحريري؛ واستخدام المحسنات اللفظية والمعنوية بكثرة، وخاصة السجع، وهو سجع متكلَّف في أكثره. أما إطلاق اسم المقامات على بعض المواعظ، *كمقامات* الزمخشري، فهو ليس دقيقاً في الواقع.

---

١. في المقامة: أي في المجلس. وأين ضوء الفرقد، أي متسائلاً: أين ضوء الفرقد؟ يقول لقد بحثنا بأنظارنا في المجلس عن مالك الذي له وجه منير كأنه الفرقد في السماء، كما يبحث المسافر في المهامة ليلاً بنظره عن النجم القطبي الذي يهتدي به التائهون أو السائرون ليلاً، وكذا مالك، فهو يقود الآخرين ويهديهم.

٢. يصف الشاعر قوماً يحبهم، فيقول: إن تراب مجالسهم وأنديتهم عبق الرائحة كالمسك، وإن تراب قبورهم هو أطيب رائحةً.

٣. استبّ: أصله استتبّ، حذفت إحدى تاءيه. قال في *المعجم الوسيط* (مادة تبّ): «**استتبّ الأمر: اطّرد واستقام واستقر؛ يقال: استتب الأمن، واستتب النظام**». ومعروف أن الاستقرار هو لأهل المجلس بالضبط كما يقال: لمّا انتظم المجلس أو كمل، ... فهم يعنون: لما استقر الجالسون في أماكنهم.

كيف نشأت المقامة؟

المقامة لم تنشأ من فراغ، ولم تكن مقطوعة عن غيرها من الفنون، ولا بمعزل عن حركة الأدب وسيره العام، بل كانت امتداداً لها. كما أنها كانت استجابة طبيعية لما في عصرها من أساليب لغوية ومدارس أدبية. و«**في القرن الرابع أخذت الصناعة البديعية تشتد لكنها لم تقض على الأسلوب المتوازن الذي عرفناه في الجاحظ ومن حذا حذوه من كتّاب ذلك القرن وما بعده. والواقع أن الأسلوب المسجّع لم تتم له السيادة في التصنيف كما تمت له في الترسّل والخطابة وما إليها من ضروب الإنشاء الأدبي**» (المقدسي، ١٩٧٦م، ص ١٩٧).

من ذلك نرى أن التصنيع والتزويق اللفظي بزغ في القرن الرابع الذي ظهرت المقامات في النصف الثاني منه، واستمر مزدهراً حتى النهضة الأدبية الحديثة التي ظهرت أولى طلائعها بعد تسعة قرون تقريباً. وقد اختُلف في نشأة المقامات والمبتكر لها، حيث يتحدث أنيس المقدسي عن هذا الموضوع فيورد بعض الآراء في هذا الصدد، إذ يذكر أن بروكلمان يذهب إلى أن أقدم معاني المقامة يرجع إلى أيام الجاهلية (المصدر السابق، ص ٣٦٢). وينقل عن زكي مبارك أنه يعتبر ابن دريد هو أول من ابتدع المقامات (السابق، ص ٢٦٣).

يؤيد ذلك ما نقله شوقي ضيف عن الحصري أن البديع عارض بمقاماته أحاديث ابن دريد التي سمّاها بالمقامات، ولكن موضوعاتها كانت متنوعة تدور غالباً حول حكايات عربية قديمة للتاريخ والحب فيها نصيب، بينما استقرّت مقامات البديع على موضوع الكدية، ولكن كلا المقامات تشترك في هدف واحد، وهو تعليم الناشئة اللغة (ضيف / ١، ص ٢٤٨).

وحتى فكرة الكدية لم تكن من اختراع بديع الزمان، بل إن الأدباء السيّارين الذين كانوا يُسمّون بالساسانيين، كانوا يشغلون حيّزاً في الحياة الأدبية في القرن الرابع الهجري، وقد سمى الهمذاني إحدى مقاماته بالمقامة الساسانية، كما أن أشعار الكدية ووصف حيل المكدين كانت شائعة آنذاك، وأهم الشعراء في هذا الصدد هو أبودلف الذي روى الهمذاني بعض أشعاره في إحدى مقاماته، حيث عارض أبودلف هذا دالية الأحنف العكبري التي شرح فيها حال المتكدين وحيلهم وطرائفهم ومصطلحاتهم (السابق، ص ٢٤٨ و٢٤٩).

ومهما يكن من أمر فإن المقامات التي اعتُبرت فناً من الفنون الأدبية يعود الفضل في إنشائها بشكلها الأدبي الذي شاع في القرنين الخامس والسادس للهجرة إلى بديع الزمان الهمذاني، فهو أول من اخترعها كقطعة فنية لها خصوصياتها التي تميّزها عن غيرها من الفنون، وجعل موضوعها المتكرر هو الكدية، كما اختص جميع مقاماته براوٍ ثابت وبطل لا يتغير. فلنرَ من هو الهمذاني؟

من هو بديع الزمان الهمذاني؟

الهمذاني كاتب متمكن وعالم متبحر وأديب بارع ولغوي قدير، قال عنه محيي‌الدين عبدالحميد: «**الكاتب المترسِّل والشاعر المجيد، قدوة الحريري، وقريع الخوارزمي ووارث مكانته، معجزة همذان ونادرة الفلك، وفريد دهره روايةً وحفظاً، وغرّةُ عصره بديهةً وذكاءً ...**» (عبدالحميد، د. ت، ص ٧).

وقال عنه أنيس المقدسي إنه «**كان سريع الخاطر والحفظ، واسع المعرفة اللغوية والبيانية، تطيعه الألفاظ والأشكال البديعية طاعة الأدوات للصانع الماهر، على أنه كان برغم كل ما وصفه به الثعالبي من خفّة الروح وحسن العشرة والخُلُق كثير الميل للظهور، وظاهر الأنانية والغرور**» (المقدسي، ١٩٧٩م، ص ٣٧٥).

ولد أبوالفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الملقب ببديع الزمان الهمذاني في همذان[١] سنة «٣٥٨هـ»، على أقرب الاحتمالات. درس العربية والأدب وبرع فيهما على عدد من العلماء الأعلام في همدان، ولكن ما لبث أن غادر همدان عام «٣٨٠هـ»، وهو في الثانية والعشرين. ويذكر الدكتور حريرجي أن الري كانت أول مدينة قصدها الهمذاني، حيث انضمّ إلى جملة الأدباء والشعراء الذين كان يزخر بهم بلاط الصاحب ابن عباد، وما لبث أن أصبح أبرزهم. نال الهمذاني لدى ابن عباد منزلة رفيعة، حيث طالما مدحه بشعره. وحدث مرات ومرات أن حيّر الهمذاني الصاحب وجلساءه بسبب توقّد ذهنه وقوة ذاكرته وسعة بديهته، حيث كان يأتي بكل ما كانوا يقترحونه من شعر في أي معنى كان أو وزن أو قافية، بل كان يترجم ما كانوا يعرضونه عليه من شعر بالفارسية إلى العربية شعراً حسب ما كانوا يطلبونه منه من البحور والأوزان دون تأمل أو تمهل (حريرچی، ١٣٤٥هـ. ش، ص ٣١ ـ ٣٢).

وبعد أن أقام مدة في الري، قدم جرجان وأقام بها مدة في كنف جماعة الإسماعيلية. وما لبث الهمذاني أن غادر جرجان إلى نيسابور التي وردها عام «٣٨٢هـ»، وفيها أنشأ مقاماته وظهر فضله وعلمه وعلا هناك قدحه وراش سهمه. وفي طريق نيسابور أغار لصوص على بديع الزمان وأخذوا ما كان معه من أموال ومتاع (السابق، ص ٣٢).

وقد اختلف الهمذاني مع الخوارزمي الشهير الذي لم يكن أحد يجرؤ على مناجزته أو مبارزته، فكان له معه مراسلات ومناظرات. وبعد وفاة الخوارزمي، خلا الجو للهمذاني، فعلا ذكره، وحسنت حاله، وسبّح الناس بحمده، وتمنّى الملوك مجالسته والرؤساء منادمته، فتجول في كافة بلدان خراسان وسجستان. وفي سجستان نال جاهاً لدى أميرها خلف بن أحمد الذي كان عالماً فاضلاً. ومن الممكن أن يكون هذا الأمر سبباً لأن يضيف الهمذاني ست مقامات إلى مقاماته ليتحدث فيها عن كمال ذلك الأمير وعلمه. ولكن بديع الزمان لم تطل به الإقامة في سجستان كثيراً، حيث تركها قاصداً هرات التي كانت تابعة لدولة السلطان محمود الغزنوي. وقد كان يريد عن طريق ذلك أن يصل إلى السلطان الذي اشتهر بفتوحاته الكثيرة، وأن يكون من خواصه. وفي هرات صاهر بديع الزمان أبا علي الحسين بن محمد الذي كان من أعيانها العلماء، فرفه فيها حاله مع ما كان عليه قبلها، ولكنه لم يهنأ بذلك طويلاً، حيث إن المنية عاجلته وهو في الأربعين من عمره، فتوفي عام «٣٩٨هـ» (عبدالحميد، د. ت، ص ٧ـ٨).

ولد الهمذاني ونشأ في عصر كان التصنيع ـ أي استخدام الزخارف اللفظية ـ فيه هو المثل الأعلى والميزة المُثلى، فكان ذلك منهجه وغاية جهده وسعيه. وأول من بدأ حركة التصنيع في الكتابة هو الصابي في كتابه *التاجي في أخبار بني بويه*، ثم تبعه الآخرون من مؤلفي التاريخ، وخاصة العتبي في كتابه *اليميني* (ضيف، آ د.ت، ص ٢٢٨).

يعتمد الهمذاني في تصنيعه على السجع القصير الفقرات، فلم تكن سجعاته عبارات، بل كانت بعض الأحيان كلمات، وهو يعتمد الجناس في تصنيعه، بينما اعتمد الخوارزمي المعاصر له الطباق، وهما يشتركان في العناية بالتصوير. واهتم البديع بلون لم يأبه به الخوارزمي، وهو مراعاة النظير بين ألفاظه وكلماته. وهناك ظاهرة تختص بها رسائل البديع هي ظاهرة القصص (السابق، ص ٢٤١)؛ وقد كان البديع يكثر استخدام الأمثال في نثره، والاقتباس من القرآن الكريم في كتابته، وتضمين الشعر في رسائله، حيث يضطره السجع والجناس إلى إيراد الغريب من الألفاظ (المصدر السابق، ص ٢٤٤). ولقد كانت مقاماته خير مثال لتصنيعه وتصنعه الذي وصل ذروته على يد الحريري. ولكن الدكتور حريرجي يقول إن سجع الهمذاني لطيف لا يُرى فيه تكلف

---

١. بالذال المعجمة، وهي الآن بالدال؛ ولا فرق ـ في الواقع ـ بين الذال والدال في العربية، فكثيراً ما تسقط نقطة الذال، والشواهد على ذلك كثيرة في القرآن. قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، وهذه الآية وردت أربع مرات في سورة القمر ٥٤، الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢، و ٤٠.

(حريرچی، ١٣٤٥هـ. ش، ص ٥٨)؛ يؤيد ذلك حنا الفاخوري، حيث يقول: «**والتنميق يقوم بنوع خاص على السجع؛ والبديع يلتزمه إلا نادراً، وهو عنده خفيف، رشيق، قريب إلى الطبع، بعيد عن التكلُّف، وفواصله شديدة الحيوية تتوالى في سرعة وانطلاق**» (الفاخوري، ١٩٩٥م، ص ٦٣٠).

> **ومن أمثلة تصنع الهمذاني شغفه باللعب بالألفاظ الذي وصفه الخوارزمي بالشعوذة، بينما يعدّه هو مقدرة لغوية وموهبة أدبية، من ذلك ادعائه أنه يستطيع كتابة رسالة ليس فيها حرف منفصل (راء، دال، واو، ... الخ)، أو رسالة أول سطورها كلها ميم وآخرها جيم، أو رسالة خالية من الألف واللام، أو رسالة إن قُرِئت من البداية إلى النهاية كانت خطاباً، وإن قُرِئت بالعكس؛ من النهاية إلى البداية، كانت جواباً، وغير ذلك من الألاعيب** (السابق، ص ٢٤٥).

من هو الحريري؟

ولد الحريري في البصرة عام «٤٦٤هـ»، ولم يخرج منها حتى وفاته عام «٥١٦هـ». كان صاحب ديوان الخبر في البصرة من قبل الخليفة وتوارثه من بعده أولاده وأحفاده. وكان موسراً ثرياً ولكنه كان دميماً قبيح الخلقة. قال عنه حنا الفاخوري:

> **هو أبو القاسم بن علي الحريري. ولد في قرية مشان من ضواحي البصرة، ثم انتقل إلى البصرة وأقبل على علوم اللغة والنحو يتنمّق فيها، ثم تقلّب في وظائف الدولة. وقد أشار عليه الخليفة المستظهر أن يضع مقاماته، فوضعها وكافأه الخليفة عليها شديد المكافأة. ولما توفّي المستظهر، ترك الحريري بغداد ورجع إلى البصرة فعُيِّن فيها صاحب الخبر أي ما يشبه صاحب مصلحة الاستعلامات إلى أن توفّي سنة ٥١٦ هـ** (الفاخوري، ١٩٩٥م، ص ٦٣٦).

كان الحريري غاية في البلاغة والفصاحة والفطنة والذكاء مع شيء من الظرف والدعابة. وقد ادعى أنيس المقدسي أن تلك الدعابة قد نجدها في حياته ولكننا نفقدها في مقاماته. ولكن هذا الادعاء قد لا يكون دقيقاً، حيث أن اثنتين من مقاماته؛ المقامة الخامسة (الكوفية) والمقامة العاشرة (الرحبية) هما من هذا النوع.

بدأ الحريري كتابة مقاماته سنة «٤٩٥هـ» عندما كان في الحادية والثلاثين من عمره، واستمر بها حتى أتمّها في بضعة سنوات تلت. وقد سلك الحريري في مقاماته مسلك الهمذاني وحذا حذوه فيها، فجعل موضوعها الكدية وسمّى لها راوياً يشير اسمه (الحارث بن همّام) الذي هو عبارة عن صفتين إلى المؤلف الذي يدّعي أنه يحمل صفات الراوي. أما بطل *مقامات* الحريري فهو أبوزيد السروجي الذي يدعي الحريري أنه شخصية حقيقية صادفها في مساجد البصرة، ولكن الباحثين كبروكلمان يشككون في ذلك ويردّونه، معتبريه خرافة (المقدسي، ١٩٧٩م، ص ٣٩٢). وكان هدف الحريري من مقاماته هو إظهار مقدرته الأدبية واللغوية أكثر من سرد القصص والحكايات وإن كان ذلك مهمّاً، فقد رويت له رسالتان التزم في الأولى منهما حرف السين في كل كلمة من كلماتها، وفي الثانية حرف الشين. وأورد في إحدى مقاماته المسماة بالرقطاء رسالة كل كلمة من كلماتها أحد حروفها خال من النقط والآخر منقوط، وسيرد لاحقاً مزيد من هذه المسائل مشفوعةً بالأمثلة.

ولا عجب أن يتصرف الحريري كذلك ويحاول إثبات مقدرته اللغوية وتبحره فيها بهذا الشكل، فهو خريج مدرسة التصنع، بل كان إماماً فيه. ويعلّق شوقي ضيف على تلاعب الحريري بالألفاظ وباللغة بقوله:

> **وما من ريب في أن ذلك يدلنا على أن الحريري كان يبحث عن وسائل جديدة يوشّي بها عمله، ولكنه حين اتجه هذا الاتجاه، ضل سبيله، فوقع في هذه الطرق الغريبة من التصنع لشوارد اللغة أو شوارد الأمثال أو مسائل النحو أو مسائل الفقه أو غرائب الكنايات**» (ضيف، آ د. ت، ص ٣٠٢).

الحريري بين التقليد والإبداع

يعترف الحريري في مقدمة مقاماته بفضل بديع الزمان وتقدمه عليه وأنه كان له فضل السبق والريادة في ابتكار المقامات وإنشائها، وتحريرها واختراعها، وأنه هو لم يأت بجديد سوى تقليد الهمذاني واقتفاء أثره، وأن مقاماته لم تكن ـ رغم قيمتها الأدبية ـ سوى محاكاة لقديم، وسد لفراغ، واستجابة لالتماس. يقول في مقدمة مقاماته: «**فأشار من إشارته حُكم، وطاعته غُنم**[1]، **إلى أن أُنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالعُ شأوَ الضّليع ...**» (الشريشي، د. ت، ص ١٦ـ١٧).

فقد قام الحريري بتقليد الهمذاني في كل ما يتعلق بالمقامات ابتداءاً ببطلها وراويها الثابتين وقيامها على موضوع واحد يتكرر، وهو الكدية، وانتهاءاً بإغراقها بالمحسّنات البديعية، اللفظية والمعنوية، وخاصة السجع، والتشبيهات والاستعارات الكثيرة، والأحاجي والألغاز التي اعتبرها الهمذاني مقدرة وفناً، وتبعه الحريري في ذلك وسار على نهجه ونسج على منواله. لكن الحريري لم يتوقف عند الحدود التي رسمها الهمذاني، بل تخطّاها وزاد عليها من عنده، ولكن إضافات الحريري لم تكن خارج الإطار الذي رسمه الهمذاني، بل كانت ضمنه وفي حدوده. فمن الأمور التي تشابهت فيها *المقامات* الحريرية مع *المقامات* البديعية، على سبيل المثال لا الحصر، ما يلي:

١. الراوي في المقامة يحمل جميع الصفات الإيجابية. فهو رزين ذو شخصية قوية، وثري جواد، وأخو ثقة لا يخون ولا يكذب، أما البطل، فهو على العكس من ذلك؛ ماكر مخادع، وفقير قد خلقت ثيابه ولو كذباً، وذو عيلة ولو ادعاءً، ومتسوّل يسأل الناس إلحافاً، ومتكدّ يحتال في كسب التافه من المال حتى لو كان يملك أموال قارون، ويتمتع في الدنيا بملك هارون. وهذا الأمر نجده لدى الهمذاني والحريري على السواء.

٢. تشابهت مقامتان لدى الهمداني والحريري في الحوادث والموضوع والأسلوب، وحتى في الاسم، فكلاهما سُمّي بالمقامة الكوفية.

٣. يقول الحريري في أولى مقاماته (المقامة الصنعانية): «**لما اقتعدتُ غارب الاغتراب، وأنأتني المتربة عن الأتراب، طوّحت بي طوائح الزمن ...**»، ثم قارن ذلك بقول الهمذاني في أولى مقاماته (المقامة القريضية): «**طرحتني النوى مطارحها**».

وعلى كل حال، يجب حمل كلام الحريري السابق على التواضع للمعلم والاعتراف بالجميل للسابق المتقدم، حيث اختلفت *مقامات* الحريري عن *مقامات* الهمذاني في أمور وتخطّتها في مسائل أخرى. وهذا ما يؤمن به هو نفسه، حيث أكّد الدكتور شوقي ضيف هذه الحقيقة بقوله: «**على أنه ينبغي أن نعرف أن هذا التواضع الذي افتتح به مقاماته واختتمها، لم يكن صادقاً فيه كلّ الصدق؛ فقد كان مؤمناً بعمله، وقد أجرى على لسان أبي زيد شهادات مختلفة تؤكد تفوّقه وإحسانه**» (ضيف، ب د. ت، ص ٥٣)؛ ويضيف: «**فهو يقدّم أبازيد على أبي‌الفتح الإسكندري، وبالحَرَى أنه يقدم نفسه على بديع الزمان**» (السابق، ص ٥٤).

ويقول حنا الفاخوري: «**و*مقامات* الحريري أشدّ رصّاً من *مقامات* البديع، وهي أشدّ حبكاً وأكثر غرابة، وأشدّ اعتماداً للسّجع والتنميق، والحريري أكثر مهارة في اختيار الألفاظ وتركيب الجمل**» (الفاخوري، ١٩٩٥م، ص ٦٣٨)؛

ويقول شوقي ضيف في موضع آخر:

> **وبديع الزمان هو الذي مهّد الطريق وعبَّدَه لظهور هذا الفن [المقامات]، وخلفه الحريري، فتبيَّن المعالم والصور بأوضح مما تبيّنها سلفه، إذ كان أوسع ثقافة، وأحكم صياغة، وأقوى تعبيراً، فإذا هو يصل بالفن إلى القمة التى كانت تنتظره، وإذا مقامته تصبح المعجزة الخارقة التي لا تُسبَق ولا تُلحَق على مر العصور. وكأنما كُتِب في ألواح القدر أن يظل الحريري يتيمة الدهر وعبقريّه الفذ الذي لا يبارى ولا يجارى في هذا الفن** (ضيف، ب د. ت، ص ٥).

---

١. قال في الحاشية: المراد به وزير السلطان المسعود واسمه أنوشروان بن خالد، وقيل والي البصرة، وقيل هو الخليفة، وقال بعض: غلام الخليفة.

ونستطيع الآن تسجيل بعض مظاهر الإبداع في *مقامات* الحريري كما يلي:

١. ميل الحريري إلى النظم والتنظيم، وصولاً إلى وضع أصول ثابتة للمقامات لا يحيد عنها من أراد تعلّم صنعة الإنشاء. ومن ذلك ما يلي:

١ ـ ١ ـ تنظيم المقامات بدايةً ونهايةً. يقول شوقي ضيف:

وبذلك تنتهي المقامات، وقد أهّل الحريري لنهايتها خير تأهيل، كما افتتحها خير افتتاح؛ فهو في أولها يعرّف البطل براويته، وهو في خاتمتها يفرق بينهما. وهو يعد للخاتمة بالمقامة الساسانية ... وكل ذلك دليل بيّن على أن الحريري صنع مقاماته بشكل بناء متكامل، له أول واضح وله آخر واضح (ضيف، ب د. ت، ص ٥٣).

١ ـ ٢ ـ لابد لكل مقامة أن تحتوي على بطل، وبما أنها قصة، فهي بحاجة إلى راوٍ يرويها، وهذا ما التزم به الهمذاني والحريري على السواء. فكان الراوي والبطل هما هما في كافة المقامات لا يتزحزحان ولا يتزلزلان. ولكننا نشاهد بعض الأحيان أن البطل لدى الهمذاني قد تسنّم دوراً هامشياً ثانوياً، كما جاء في نهاية المقامة الأسدية، وكأنه أُلحق بها إلحاقاً أو حُشر فيها حشراً، يؤيّد هذا ما قاله الدكتور شوقي ضيف في كتاب المقامة، حيث قال:

ولا يختلف باحث في أن هذا البطل من خيال بديع الزمان، فلم يسبقه باسمه أحد، وإنما هو الذي وضعه لمقاماته، فهو يجري في أكثرها، وإنما نقول أكثرها، لأن هناك مقامات لم يرد ذكره فيها مثل المقامة الغيلانية والبغدادية. وهناك مقامات لا يظهر فيها أبوالفتح إلا في آخرها كالمقامة الإبليسية. ولكن الكثرة يتضح فيها منذ أول الأمر (ضيف، ب د. ت، ص ٢٣).

بينما نستطيع القول إن البطل قد تطور لدى الحريري وتكامل؛ فإذا كافة المقامات تقوم عليه وتدور حوله وإن الذي يختلف من مقامة لأُخرى هو الدور الذي يؤدّيه البطل لا غير. إنّ محافظة البطل على دوره الرائد لدى الحريري يدل على ميله إلى النظم والتنظيم الذي يعتبر بحدّ ذاته تقدماً في هذا المجال وتطوراً، كما يدل على رغبة الحريري في وضع أصول ثابتة للمقامات لا يحيد عنها من أراد الخوض في هذا الميدان.

١ ـ ٣ ـ ترقيم المقامات، حيث يعتبره شوقي ضيف دليلاً على الترتيب والتنظيم. يقول: «**غير أننا إذا فحصنا *مقامات* الحريرى، وجدناه يرتبها ويرقمها؛ فتلك المقامة الأولى، وتلك المقامة الخمسون وكل مقامة بينهما تأخذ رقمها الخاص. وهذا معناه البناء المحكم ذو الحلقات**» (ضيف، ب د. ت، ص ٥٠).

١ ـ ٤ ـ تتنوع موضوعات *مقامات* الهمذاني تنوعاً عشوائياً غير مقصود، بينما تتنوع بشكل عمدي مقصود لدى الحريري. فقد التزم الحريري أن تكون كل مقامة سادسة (أي السادسة والسادسةعشرة والسادسة والعشرون والسادسة والثلاثون)، أن تكون أدبية أو ما نستطيع تسميته بالتعقيد اللفظي، وكل حاديةعشرة (أي الحاديةعشرة والحادية والعشرون والحادية والثلاثون، والحادية والأربعون)، أن تكون زهدية أو بالأحرى في الوعظ والإرشاد، وكل خامسة وعاشرة هزلية، وهذا دليل آخر على إبداع الحريري ورغبته في وضع قوانين لمقاماته تزيدها تنظيماً ورونقاً.

٢. إن قلة الإنتاج الأدبي النسبي لدى الحريري تدل على الرغبة في الدقة والاعتناء بإخراج الأثر الأدبي متكاملاً خالياً من النقص المحتمل، تماماً كما يفضّل الحطيئة الحوليّ المحكّك من الشعر. فقد ادّعى الهمذاني أن مقاماته بلغت أربعمائة[١] ـ وإن لم يصل

١. هذا العدد ورد في إحدى رسائل الهمذاني ينتقد فيها إحدى قصائد الخوارزمي، وقد أثبت الحصري والثعالبي ذلك العدد، بينما ردّه الفاخوري معتبراً أن الهمذاني إنما ذكره تبجّحاً ومغالاة وتكبراً ومباهاة (الفاخوري، ١٩٩٥م، ص ٦٢٥).

إلينا سوى القليل منها ؛ـ بينما لم تتعدَّ *مقامات* الحريري الخمسين مقامة. واعتبر الدكتور حريرچي عدد *مقامات* بديع الزمان «٥١» مقامة (حريرچي، ١٣٤٥هـ. ش، ص ٤٤)، بينما يؤكّد الفاخوري أن عددها هو «٥٢» مقامة : «**وضع منها أربعين؛ إذ كان معلّماً في نيسابور، ثم وضع ستاً في مديح خلف بن أحمد صاحب سجستان وهو نازل عنده، ثم أضاف إلى ذلك كله ستّ مقامات أخرى كانت خاتمة الباب وفضلة ما في الجراب**» (الفاخوري، ١٩٩٥م، ص ٦٣٨).

٣. إن طول *مقامات* الحريري بالنسبة لمقامات الهمذاني يدلّ على أن الحريري كان يريد أن يجعل من مقاماته قصصاً متعددة الأغراض، وألا تكون محصورة بتعليم الإنشاء فحسب، وإن كان هو الهدف الأبرز فيها، وقد يكون هذا هو أحد الأسباب التي أدّت إلى اشتهار *مقامات* الحريري بالرغم من قلة أسفاره أو عدمها، حيث إن هناك من يعتقد أنه لم يخرج من البصرة حتى وفاته، وكان الطلاب يقصدونه من الآفاق.

٤. صحيح أن من مميزات المقامات استعمال المحسنات البديعية، وخاصة السجع، إلا أننا نلاحظ أن سجع الحريري أكثر تكلفاً، ولكنه في المقابل جاء بكثير من الاستعارات الجميلة والكنايات اللطيفة. ومن أمثلة ذلك ما جاء في هذا المقطع من المقامة الدينارية من الاستعارات المكنية، إذ قال : «**إلى أن احتذينا الوجى، واغتذينا الشّجا، واستَبْطَنّا الجوى، وطوينا الأحشاء على الطوى، واكتحلنا السُّهادَ، واستوطَنّا الوِهادَ، واستوطأنا القَتادَ، وتناسَينا الأقْتادَ**»[1]. وقال في المقامة المَرَويّة :

> **قال : فقرّبه الوالي لبيانه الفاتن، حتى أحلّه مقعد الخاتن. ثم فرضَ له من سُيوب نيله، ما آذنَ بطولِ ذيله، وقِصَرِ ليله. فنهضَ عنه برُدنٍ ملآنَ، وقلبٍ جذلانَ. وتبعتهُ حاذياً حذوَهُ، وقافياً خطوَهُ. حتى إذا خرج من بابه، وفصلَ عن غابه. قلتُ له : هُنّئْتَ بما أوتيتَ، ومُلّيتَ بما أُوليتَ**[2] (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥).

ونلاحظ في *مقامات* الهمذاني بعض الأحيان سهولة المأخذ وعدم التقيد بالازدواج والسجع اللذين تقيّد بهما الحريري (المقدسي، ١٩٧٩م، ص ٣٨٢) ؛ وهذا دليل آخر على النظم والتنظيم لدى الحريري وتقيّده بالقانون الذي استنّه.

٥. طوَّل الحريري تشبيهاته واستعاراته وتمثيلاته طولاً يؤدّي إلى سأم القارئ وملله ؛ وخير مثال على ذلك ما جاء في مقطع من المقامة الحُلوانية، فقد استخدم ستّاً من الجمل المختلفة والأساليب المتنوعة ليؤدّي معنى واحداً لا غير، ألا وهو سفر صديقه أو مفارقته. قال :

> **إلى أن جدَحَتْ له يدُ الإملاقِ كأسَ الفِراقِ. وأغراهُ عدمُ العُراقِ بتطليقِ العِراقِ. ولفظتْهُ مَعاوِزُ الإرفاقِ إلى مَفاوِزِ الآفاقِ. ونظمَهُ في سِلكِ الرِّفاقِ خُفوقُ راية الإخفاقِ. فشحذ للرِّحلة غِرارَ عزمته، وظعنَ يقتادُ القلبَ بأزِمَّته**[3] (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٢٤).

---

١ . احتذينا : انتعلنا. الوجى : رقة القدم من كثرة المشي. الشجا : عظم يعترض في الحلق يمنع سهولة البلع. الجوى : شدة الوجد. الطوى : الجوع. السهاد : السهر. الوهاد : جمع وَهْدة، وهي ما انخفض من الأرض. استوطأنا : وطأنا. القتاد : الشوك. الأقتاد : جمع قَتِدَة كفَرِحَة، وهي في الأصل الإبل تشتكي من أكل القتاد.

٢ . الخاتن : الذي يختن الصبي، وهو مثل يضرب في فرط القرب. سُيوب : جمع سَيْب، وهو ما تُرك ليذهب حيث شاء. نيله : النيل والنوال بمعنى العطاء. آذنَ : أعلم. طول ذيله : كناية عن الغنى وكثرة المال. قصر ليله : كناية عن قصر همّه وكونه مسروراً. الرُّدن : الكُمّ، استعاره لليد. حاذياً حذوه : فاعلاً مثل ما يفعل. فصل : ابتعد وخرج. غابه : الضمير يعود للوالي، ويقصد بالغاب مجلس الوالي، وأصله مأوى الأسد. مُلّيت : مُتّعت. أُوليت : أُعطيت.

٣ . جدحت : خلطت ومزجت. الإملاق : الفقر. أغراه : أولعه به وحرّضه عليه. العُراق : جمع عِرق، وهو العظم الذي يؤخذ عنه العظم. العِراق : البلد المعروف، والمقصود به هنا مدينة حُلوان التي كانت قرب بغداد، من باب إطلاق الكل على الجزء. مَعاوِز : جمع مَعوز، اسم مكان من العَوَز، وهو محل الحاجة والاحتياج. الإرفاق : النفع والإعانة. مفاوز : جمع مفازة، وهي الفلاة. الغِرار : حد السيف. الأزِمّة : جمع الزِّمام، وهو الخيط الذي يُشَدُّ الى البَرَة، وهي حلقة من صُفر أو غيره تجعل في طرف أنف البعير، أو الخَشاش، وهو عود في أنف البعير، ثم يوصَل بالمقود.

وكما يلاحظ في النص السابق، فإن الحريري قد أغرق نصه بالجناس والسجع المتكلَّف والاستعارات والكنايات.

٦. اشتهرت *مقامات* الحريري أكثر من *مقامات* الهمذاني، في حياته قبل مماته؛ إذ أجاز بخطه فقط «٧٠٠» نسخة منها سوى ما تمّ استنساخه دون إجازته. وأُعجب الناس بها أيما إعجاب، بل يمكن القول إن *مقامات* الحريري نسخت *مقامات* الهمذاني لدى الناس حتى نُسيت أو تُنوسيت. وهذا يدل على أن أهل الاختصاص قد وجدوا في *مقامات* الحريري أموراً خلت منها *مقامات* الهمذاني، أو أنهم وجدوا فيها ضالّتهم؛ يقول شوقي ضيف:

> **ومهما يكن، فقد دوَّت شهرته في العالم الإسلامي، وهو لا يزال حيّاً، ويقال إنه أعطى إجازة لسبعمئة طالب أن يرووا مقاماته عنه في الناس. وهو عدد ضخم يدل على مبلغ عناية معاصريه بعمله، ومدى ما تمتع به من مكانة أدبية مرموقة في عصره** (ضيف، ب د. ت، ص ٤٦).

٧. «**لعل أهم جانب تفترق به *مقامات* الحريري عن *مقامات* بديع الزمان هو أنها كُتبت في ظلال مذهب التصنّع وعقده، بينما كُتبت *مقامات* البديع في ظلال مذهب التصنيع وزخرفه**» (ضيف، آ د. ت، ص ٣٠٠). والتصنيع هو استخدام البديع وفنونه بكثرة وما يتبعه من تكرار المعاني، أما التصنّع فهو مرحلة متقدمة من التصنيع تعتمد عليه لتُخرجه بأداء صعب وتعقيد لفظي واستحداث طرق تلاعب لغوية. ويسميه شوقي ضيف في موضع آخر بالعُقَد البلاغية؛ يقول:

> **وشُغِف الحريرى بموضوع ... يتصل بالحياة الأدبية فقد تعقدت هذه الحياة، وأخذ أصحابها يُعنون بالعُقَد البلاغية. فليست البلاغة الرائعة هى العبارة المنمّقة بالسجع والمحلاة بألوان البديع، فذلك أمر يهون، وتستطيع الألسن كلها أن تصل إليه، وإنما البلاغة الرائعة حقاً هى التى تتيح لصاحبها أن ينحاز جملة عن كل الطرق الطبيعية في الفن، وأخذ الحريرى يُثبت مهارته في ذلك، وخصَّ به اثنتيعشرة مقامة، أرانا فيها ألعابَه الفنية، وكأنها ألعاب بهلوانية** (ضيف، ب د. ت، ص ٥٦).

٨. إن الوعظ هو من المواضيع الاجتماعية التي عالجها بديع الزمان والحريري على السواء، ولكن الحريري أوغل فيها أكثر من سابقه وخصّص كثيراً من مقاماته لهذا المهم. يقول الدكتور شوقي ضيف: «**أما ما يشترك فيه معه [مع بديع الزمان] فهو الوعظ، وإذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أباالفتح الإسكندري واعظاً في مقامتين، فإن الحريري عرض أبازيد واعظاً في عشر مقامات، بل قد تزيد**» (السابق، ص ٥٤).

٩. إذا كان البديع قد قصد بمقاماته إظهار مقدرته الأدبية في قصص فيها شيء من الدعابة والطرافة، فإن الحريري ما كان يهتمّ بموضوعات مقاماته قدر اهتمامه بألفاظها وتنميقها وزخرفها، وما كان يحرص على معانيها قدر حرصه على التلاعب باللغة والتزام ما لا يلزم من الألفاظ، وكل ذلك أوقعه في تعقيد لغوي ـ كما سمّاه شوقي ضيف ـ لم يبلغه البديع وما كان شائعاً في عصره أي القرن الرابع، بل هو من ميزات القرن الخامس التي بهرت الناس وسحرتهم وما كان يُرضيهم سواها؛ ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- استخدامه بكثرة للكنايات بما يخرج عن المعقول؛ ففي المقامة النصيبية يكنّي عن الموت بأبي يحيى، وعن الجوع بأبي عمرة، وعن الخِوان بأبي جامع، وعن الخبز الحواري بأبي نُعَيم، وعن الجَدْي بأبي حَبيب، وعن الخَلّ بأبي ثقيف، وعن الملح بأبي عون، وعن البَقْل بأبي جميل، وعن السِّكباج[١] بأمّ القرى، وعن الهريسة بأمّ جابر، وعن الفالوذج[٢] بأبي العلاء، وعن الطست والإبريق بالمُرجفَين (السابق، ص ٣٠١؛ والحريري، د. ت، ص ١٦٥ـ١٦٩).
- حاول إظهار مقدرته اللغوية في الشعر، إضافة إلى النثر، بما يعجز عنه الآخرون في ما سمّاه الدكتور شوقي ضيف العقد البلاغية، وقد تمثّل ذلك في ما يلي:

---

١ ـ السكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل وأفاويه، القطعة منه سِكباجة.

٢ ـ الفالوذج: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل، وتصنع الآن من النشأ والماء والسكر (بقّال، ١٣٧٦هـ. ش، ج ٥، ص ١٨).

أ) كما يقول شوقي ضيف (ب د. ت):

التجنيس الخطّي بين الكلمات، بحيث لو حذفت النقط منها تراءت متماثلة تمام التماثل من مثل قوله:

زُيِّنَت زينبٌ بقَدٍّ يَقُدُّ وتلاهُ ويلاهُ نَهدٌ يَهُدُّ

وكأن هذا الجناس لم يُبلغه كل أمنيّته، فذهب ينظم بيتين، تتجانس فيها فاتحتهما وخاتمتهما إذ يقول:

سِم سِمَةً تحسنُ آثارُها واشكُرْ لمن أعطى ولو سِمسمَه

والمكرُ مهما اسطَعْتَ لا تأته لتقتني السؤدُدَ والمكرُمَه

فهو يضيق على نفسه في اصطناع الجناس؛ إذ يلتزمه في مطلع البيت وفي نهايته. كل ذلك ليدل على تفوّقه (ص ٦٠).

ب) التزام قافية داخلية إضافة إلى القافية الخارجية، يصعب تبيّنها دون إمعان نظر ودقّة ملاحظة، حيث إنها تنساب انسياباً متناسقةً مع بقية الكلمات ومتعاضدةً معها، مستعينةً بما للحريري من مقدرة لغوية، وملكة شعرية. وهو ما أكده الدكتور شوقي ضيف (ب د. ت)، إذ قال:

إن الحريرى لم يسمُج في ذلك كله، فقد كان يحميه طبع حادّ وإحساس دقيق باللغة. فميَّز دائماً الخبيث من الطيب والجيد من الردىء. فمهما لعب، ومهما أشكل بتمارين في مقاماته، فإنه لا يثقل. ولعل من خير الأمثلة على ذلك مقامته الثالثة والعشرون، وهى المقامة الشعرية، وعنوانها يدل على ما أراده بها من إعلان مقدرته في النظم، وقد فكّر وانتهى به تفكيره إلى نظم هذه الأبيات:

يا خاطبَ الدّنيا الدّنيّة إنّها شَرَكُ الرَّدى وقرارةُ الأكدارِ

دارٌ متى ما أضحكت في يومها أبكت غداً، بُعداً لها من دارِ!

غاراتُها ما تنقضي وأسيرُها لا يُفتدى بجلائل الأخطارِ

واستمر حتى أتم قصيدة طويلة. وليس في ظاهر الأبيات شيء، ولكن إذ أطلنا النظر فيها، لا حظنا ما ابتغاه منها؛ فإنه التزم في داخلها قافية غير القافية الخارجية، بحيث يمكن أن تنشد القصيدة كلها على هذا النمط:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شَرَكُ الرَّدى

دارٌ متى ما أضحكت في يومها أبكت غدا

غاراتُها ما تنقضي وأسيرُها لا يُفتدَى

(ص ٦١)

- أورد في المقامة النجرانية عشرة ألغاز، وقد ألغز شعراً وليس نثراً ممهداً لذلك بقوله: **«هلُمَّ إلى أن نُلغِز ونُحكِّم المبرِّز»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٤٤٢). والأمور التي ألغز فيها هي مروحة الخَيش؛ وحابول النخل، وهو لحبل يتم به صعود النخل؛ والقلم؛ والميل، وهو المرود الذي يُكتحَل به؛ والدولاب، وهو دائرة عظيمة فيها آنية لحمل الماء إلى الأعلى من البئر أو النهر عندما تدور؛ والمُزَمَّلة، وهو الجَرَّة؛ والظُّفُر؛ وطاقة الكبريت، وهي الحزمة منه؛ وحلب الكَرم، وهو الخمر، أو عصير العنب؛ والطيار، وهو معيار الذهب لأنه على شكل الطائر (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٨).
- خصّص المقامة الملطية للأحاجي فذكر عدداً منها، يبدأ كل أحجية بقوله: **«ماذا يماثل قولي: ...»**؛ نورد هنا بعض النماذج: **«جوع أمدّ بزاد»**: مثله طوامير (طوى: جوع؛ ومير: أمدّ بالطعام، من مار يمير). و«**ظهرٌ أصابته عين**» مثله مطاعين (مَطا: ظهر؛ وعِين: أصابته العين). و«**صادف جائزة**» مثله الفاصلة (ألفى: وجد، تكتب بالألف إن كانت متصلة؛ وصلة: جائزة). و«**تناولْ ألفَ دينار**» مثله هادية (ها: خُذْ، اسم فعل أمر؛ ودية: ما يعطى لأهل القتيل، وهي ألف دينار ذهباً)، وهكذا.

- أورد في المقامة المراغية رسالة إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة. قال مقدِّماً لها: **«أوْ تُنْشئَ لي أمامَ ارتحالِك رسالةً تودِعُها شرحَ حالِك، حروفُ إحدى كلمتيها يَعُمُّها النَّقْطُ، وحروفُ الأخرى لم يُعجَمْنَ قطّ»**[١] (السابق، ص ٦١)؛ وجاء في جانب منها:

وقالَ: ألقِ دواتك واقرُب، وخذ أداتَك واكتبْ: الكرمُ ـ ثبّتَ اللهُ جيشَ سُعودك ـ يزينُ، واللؤمُ ـ غضَّ الدهرُ جفنَ حسودك ـ يشين، والأروعُ يُثيب، والمُعورُ يَخيب، والخُلاحلُ يُضيفُ، والماحل يُخيفُ، والسَّمْحُ يُعْذي، والمَحْكُ يُقذي، والعطاءُ يُنجي، والمِطالُ يُشْجي، والدّعاءُ يَقي، والمدحُ يُنقي، والْحُرُّ يَجزي، والإلطاطُ يُخزي، واطِّراحُ ذي الحرمة غيٌّ، ومَحْرَمةُ بني الآمال بَغيٌ، وما ضنَّ إلا غبينٌ، ولا غُبنَ إلا ضَنينٌ[٢] (السابق، ص ٦٢).

- ذكر في المقامة المغربية عبارات تُقرأ طرداً وردّاً، أي لا يغيّرها عكس حروفها. قال مقدِّماً لها: **«إلى أن جُلْنا فيما لايستحيلُ بالانعِكاس، كقولِكَ ساكِبُ كاسٍ»**[٣] (السابق، ص ١٥٩)؛ قال في جانب منها: **«لُمْ أخاً مَلَّ... كَبِّرْ رجاءَ أجرِ ربّك... مَنْ يَرُبّ إذا برَّ يَنْمُ... سَكَّت كلَّ من نمَّ لك تكسِنْ... لُذ بكُلِّ مؤمِّلٍ إذا لمَّ ومَلَكَ بَذَلَ»**[٤] (السابق، ص ١٦٠). ولم يكتف الحريري بالنثر في هذا المجال، فألحق به النظم؛ قال:

أُسْ أرمــلاً إذا عــرا	وارعَ إذا المــرءُ أســا
أســنِدْ أخــا نبــاهةٍ	أبِــنْ إخــاءً دنــسا
أُسْــلُ جَنــابَ غاشــمٍ	مُــشاغب إن جلــسا
أُسْــرُ إذا هــبَّ مِــراً	وارمِ بــهِ إذا رســا
أُســكنْ تقــوَّ فعَــسى	يُــسعِفُ وقــتٌ نَكَــسا[٥]

(الحريري، ١٩٩٢م، ص ١٦٠)

- أورد في المقامة القهرية رسالة تُقرأ من أوّلها بوجه ومن آخرها بوجه آخر، حيث قدّم لها بقوله: **«فقالَ: أتعرفون رسالةً أرضُها سماؤُها، وصُبحُها مساؤُها؟ نُسِجت على منوالين، وتجلّت في لونين؛ وصلت إلى جهتين، وبدت ذات وجهين»** (السابق، ص ١٦٩). ثم أورد

---

١. أو تنشئ لي: أو بمعنى إلى أن. النقط: أي حروفها معجمة. لم يعجمن: بمعنى مهملة لا نقط بها.

٢. ألق دواتك: أي أصلح الدواة ومدادها. أداتك: أي قلمك. الأروع: الماجد الجميل الذي يروعك جماله. يثيب: أي يجازي. المعور: هو قبيح الفعل من العوار وهو العيب. يخيب: من الخيبة مقابل الفلاح. الخلاحل: بالضم السيد الركين الرزين. الماحل: الواشي المكار من محل به إذا وشى به ومكر. يخيف: أي يفزع. السمح: الجواد. المحك: البخيل اللجوج. يقذي: أي يكدر ويحزن. المطال: بالكسر والمطل عدم وفاء الدين ومدافعة الدائن. يشجي: أي يحزن ويغص. يقي: يكف. ينقي: أي يطهر. الإلطاط: ستر الحق وكتمانة من ألط الشيء إذا ستره. يخزي: أي يفضح. غي: أي ترك و إبعاد المحترم ضلال. بغي: ظلم. ما ضن إلا غبين: أي ما بخل، والضنة بالكسر البخل والغبن محركة ضعف الرأي ورجل غبين ضعيفه والغبن بالسكون الخسران في البيع فهو مغبون.

٣. جُلنا: تفاوضنا ودرنا. لا يستحيل: لا يتحوّل ولا يتغير. بالانعكاس: بالقلب وهو ردُّ الأول آخراً. ساكب كأس: السكب هو الصب والكأس القدح المملوء خمراً.

٤. يربُ: أي يربي الصنيعة ويصونها. ينمُ: من النماء وهو الزيادة. نمَّ: من النميمة. لُذ: إلجأ. مؤمّل: مرجى. لمَّ: جمع.

٥. أُس ـ بضم الهمزة ـ: من الأوس وهو الإعطاء أي أعط. أرملاً: هو الذي نفد زاده وافتقر. عرا: أتى طالباً للرفد. ارعَ: أمر من الرعاية وهو الحفظ. أسا: من الإساءة. أسنِد: أي أعن وارفع. أخا نباهة: أي صاحب فطنة وشرف وعلو قدر. أبِن: أبعد واقطع. إخاء: مصدر كالمؤاخاة. دنسا: يروى بكسر النون وبفتحها مشددة من التدنيس وهو تلويث العرض. أسلُ: من السلو وهو الزهادة والترك. جناب: أي فناء بكسر الفاء. غاشِم: ظالم. مشاغب: مهيج للشر. أسرُ: بفتح الهمزة وكسرها مع كسر الراء أو بضمها فبضمهما معناه كن سرياً أي سداً رئيساً واجهد في قطع المراء إذا ثار وبفتح الهمزة أو كسرها مع كسر الراء أمر من الإسراء والسرى أي اذهب عن محل المماراة. هبّ: هاج. مرا: جدال وقصره للضرورة. وارم به: اي انبذه واطرحه. رسا: ثبت. أسكن: أمر من السكون. تقوَّ: أصله تتقوَّ حذفت إحدى التاءين تخفيفاً وحذف حرف العلة للجازم لأنه واقع في جواب الأمر. يسعِف: يساعد. نكسا: قُلِب.

تلك الرسالة، ونحن هنا نكتفي بمقطع منها على سبيل المثال. قال في بداية رسالته: **«الإنسان صنيعةُ الإحسان، وربُّ الجميل فعلُ النَّدب، وشيمةُ الحرّ ذخيرة الحمد، وكسبُ الشكر استثمارُ السعادة، وعنوانُ الكرم تباشيرُ البشر، واستعمالُ المداراة يوجب المصافاة، وعقدُ المحبَّة يقتضي النصح، وصدقُ الحديث حِليَةُ اللسان»**[1] (السابق، ص ١٧٠).

- ذكر في المقامة الطيبية مائة مسألة فقهية باستخدام التورية، نورد هنا بعضاً منها:

قال: ما تقول في من توضّأ ثم لمسَ ظهْر نعله؟ قالَ: انتقضَ وُضوءُهُ بفعله. ❖ النعل: الزوجة ❖ قالَ: فإن توضّأ ثم أتكأهُ البردُ؟ قالَ: يُجَدّد الوضوءَ من بعد. ❖ البرد: النوم ❖ قالَ: أيمسحُ المتوضّئ أُنْثَيَيه؟ قالَ: قد نُدبَ إليه، ولم يوجَب عليه. ❖ الأنثيان: الأذنان ❖ قال: أيجوز الوضوءُ ممّا يقذفهُ الثعبانُ؟ قالَ: وهل أنظفُ منهُ للعُرْبان؟ ❖ الثعبان: جمع ثُعب وهو مسيل الوادي ❖ (السابق، ص ٣٣٢).

- أورد في المقامة الرقطاء رسالة أحد حروفها منقوط والآخر بغير نقط، نورد ههنا شيئاً منها. قال: **«وأنشأتُ رسالةً رقطاءَ، وهي: أخلاقُ سَيّدنا تُحَبُّ، وبعَقوَتِه يُلَبُّ، وقُربُهُ تُحَفٌ، ونأيُهُ تلَفٌ، وخُلّتهُ نسَبٌ، وقطيعتُهُ نَصَبٌ، وغَرْبُهُ ذَلِقٌ، وشُهْبُهُ تأتَلقُ»**[2] (السابق، ص ٢٦٣).

- أورد في المقامة السمرقندية خطبة خالية من الإعجام. في ما يلي مقطع منها كنموذج فقط، ونحيل القارئ الكريم إلى *مقامات* الحريري ليرى الخطبة كاملةً. قال: **«ثُمَّ قامَ وقالَ: الحمد للهِ الممدوح الأسماء، المحمودِ الآلاء، الواسِع العطاء، المدعُوّ لِحَسم اللّأواء. مالكِ الأمم ومصوّرِ الرّمم، وأهلِ السَّماح والكرَم، ومُهلِكِ عادٍ وإرم»**[3] (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٢٨٥).

- خصّص المقامة النحوية أو القطيعية بالمسائل النحوية، ونحن هنا نكتفي بنموذج واحد منها. يبدأ الحريري مسائله ببيت شعر قائلاً:

فإنْ وصلاً ألذّ بـه فوصـلٌ وإن صرماً فصرمٌ كالطلاقِ

قالَ: فاستفهمنا العابث بالمثاني، لمَ نصبَ الوصلَ الأوّلَ ورفعَ الثاني. فأقسمَ بتربة أبويه، لقد نطق بما اختاره سيبويه (السابق، ص ٢٣٩).

وفي هذه المسألة أربعة وجوه إعرابية ذكرها سيبويه، نذكر هنا الوجه الذي اختاره سيبويه وهو نصب «وصلاً» الأول باعتباره خبراً لكان المحذوفة بعد حرف الشرط، ورفع «الوصل» الثاني على اعتباره خبراً لمبتدأ محذوف بعد الفاء، وتقدير الكلام: فإن كان الأمرُ وصلاً فهو وصلٌ. والأمر في الشطر الثاني كما مرّ.

١٠. إضافة إلى ما مرّ من عناية الحريري بتنظيم مقاماته وترتيبها، اتبع الحريري كذلك أساليب خاصة وذكية لتنظيمها. ومن الأساليب التي اتبعها الحريري لتنظيم مقاماته ما يلي:

---

١ . ربّ: الرب مصدر معناه التربية. الندب: الرجل الخفيف في الحاجة. شيمةُ الحر: خلقهُ وطبيعته. عنوان الكرم: علامته. تباشير البشر: أوله كما أن تباشير الفاكهة أولها وتباشير الصبح أوله والبشر طلاقة الوجه وبشاشته. المداراة: هي خداع القلوب بلطف الكلام ومداراة الناس معاملتهم بما يحبون. المصافاة: إخلاص الصحبة. عقدُ المَحبَّة: أي انعقادها بين شخصين. حليةُ اللسان: أي زينته.

٢ . رقطاء: من الرقطة وهي السواد يشوبه نقط بياض لأن أحد حروفها منقوط والآخر غير منقوط. وبعقوته: أي بفنائه. يُلب: ألبَّ بالمكان أقام به. تُحَف: جمع تحفة وهي ما يستملح ويعجب. نأيُهُ: أي بعده من نأى عنه إذا بعد. خُلَّتُهُ: الخلة مصدر المحبة، ويقال للخليل خلة أيضاً. نَسَب: أي شرف. نصب: أي تعب. غربُهُ: أي حد سيفه. ذلق: أي حاد. شهبُهُ: يعني بها مناقبه المشهورة. تأتلق: أي تلمع، من تألق البرق: لمع؛ أي تتضح؛ وللمزيد تُراجع المقامة المذكورة.

٣ . الآلاء: النعم. حسم: قطع. اللأواء: الشدة. مصور الرمم: معيد العظام البالية. عاد: قوم هود. إرم: هو أبو عاد وقيل اسم بلدهم أو قبيلة منهم.

- توشيح مقاماته بالآيات القرآنية. ومن ذلك قوله في المقامة الحُلوانية: **«ولا ذو خِلال»** (السابق، ص ٢٧)، مأخوذ من قوله ـ تعالى ـ : ﴿**لا بَيْعٌ فيهِ وَلا خِلالٌ**﴾ (إبراهيم ١٤: ٣١)؛ والخِلال جمع الخِلة، وهي المودة، أو الخُلّة وهي الخصلة. وقوله: **«أو ركبِ طبقاً عن طبق»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٥١١)، أخذه من قوله ـ تعالى ـ : ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ**﴾ (الانشقاق ٨٤: ١٩). وقوله: **«وأضيقَ رزقاً من سمّ الخياط»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٥١٧)، أخذه من قوله ـ تعالى ـ : ﴿**حَتّى يَلِجَ الْجَمَلُ في سمِّ الْخِياطِ**﴾ (الأعراف ٧: ٤٠). وقوله: **«فلما صَدعَ برسالته الفريدة»**، وقوله: **«فاصدع بما تؤمر»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ١٧٤، وص ٣٣٢)، أخذهما من قوله ـ تعالى ـ : ﴿**فَاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ**﴾ (الحجر ١٥: ٩٤). وقوله: **«وعلّم آدم الأسماء»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٣٣١)، أخذه من قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ**﴾ (البقرة ٢: ٣١). وقوله: **«ولم يزل الناس يدخلونَ في دين الله أفواجاً»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ٢٨٥)، أخذه من قوله ـ تعالى ـ : ﴿**إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتحُ ❖ وَرَأَيتَ النّاسَ يَدْخُلونَ في دينِ اللهِ أَفْواجاً ❖ فَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً**﴾ (النصر ١١٠: ٢). وقوله: **«واضطرارهم إلى الصوم»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ١٦٩)، أي الإمساك عن الكلام، أخذه من قوله ـ تعالى ـ : ﴿**إِنّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسيّاً**﴾ (مريم ١٩: ٢٦)، أي سكوتاً.
- زيّن مقاماته بالأحاديث الشريفة اقتباساً إعجاباً بها وترويجاً لسلعته، ومن ذلك:

أ) اختيار اسم الحارث بن همام كراوٍ للمقامات مأخوذ من قوله ﷺ: «**كلكم حارث وكلكم همام**» (الحريري، ١٩٩٢م، ص ١٣).

ب) قوله: **«وتكثير سواد طالبيه»** (السابق، ص ١٣)، مأخوذ من قوله ﷺ: «**من كثّر سواد قوم فهو منهم**».

ت) قوله: **«وقَدَعْتَ نفسَك، فهي أكبرُ أعدائِك»** (الحريري، ١٩٩٢م، ص ١٩)، مأخوذ من قوله ﷺ: «**أعدى عدوّك نفسُك التي بين جنبيْك**»؛ وقدعتها أي كفتها ومنعتها عن القبيح.

ث) وقوله: **«وهدرتْ شقاشقُ ارتجاله»** (السابق، ص ١٨) مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الشقشقية: «**تلك شقشقة هدرت ثم قرّت**» (*نهج البلاغة*، ١٣٩٥هـ، ص ٥٠)، والشقاشق جمع الشقشقة، وهي ما يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

- الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، قال في خطبة الكتاب أو مقدمته: «**وما قصدتُ في الإحماض فيه إلا تنشيطَ قارئيه و تكثيرَ سواد طالبيه**» (الحريري، ١٩٩٢م، ص ١٣)، والإحماض مأخوذ من إحماض الإبل؛ أي: انتقالها من نبات حلو إلى مالح.
- استخدام الأمثال، اقتباساً وتضميناً. ونحن هنا نورد بعض النماذج، من ذلك قوله: **«لقد استَسْمَنْتَ يا هذا ذا ورمٍ»** (السابق، ص ٢٨)، أي رأيت صاحب الورم سميناً، وهو مثل ومعناه لقد استعظمت ما ليس بعظيم، وقال كذلك: **«ونفختَ في غير ضَرَمٍ»** (السابق)، هذا مثل يضرب لمن يضع الشيء في غير موضعه، والضرم النار أو الحطب السريع الالتهاب. وقال كذلك: **«فَقُلتُ لَه: ويلكَ أَبُطءُ فِندٍ، وصلودُ زندٍ»** (السابق، ص ٥١١)، وفند هو مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقّاص، وكانت بعثته بالمدينة ليقتبس لها ناراً، فقصد من فوره مصر وأقام بها سنة. ثم جاءها بعد السنة ـ وهو يشتد ـ فتبدد منه، فقال: تعست العجلة. وكذا قوله: **«وما أقبحَ الغربةَ والإقلال»** (السابق، ص ٥١٤)، يضرب مثلاً لمن يفعل بعكس ما ينبغي أن يفعل، والإقلال أي القل بمعنى الفقر. ثم قوله: **«فلا تضرِب في حديدٍ بارد»** (السابق، ص ٥١٥)، مثل يضرب لمن يطمع في غير مطمع. وأيضاً قوله: **«أنفٌ في السماء واستٌ في الماء»** (السابق، ص ٥١٧)، يضرب هذا المثل لمن يكبر مقالاً ويصغر فعالاً. ويقول في الصفحة

نفسها: **«وتعُقّ عقوق الهرّ»**، وفي المثل: «أعقّ من الهرّة» وذلك لأنها تأكل أولادها كالضبة؛ كما قال: **«يشكو إلى غير مُصمت»** (السابق، ص ٥١٨)، مثل يضرب لمن لا يكترث لشأن صاحبه ولا يعبأ باستمرار شكايته؛ لأنه لو أشكاه لصمت وأمسك عن الكلام. وقوله: **«وانطلقَ هو وابنُه كَفرسَي رهان»** (السابق، ص ٥٢٢)، وهو مثل يضرب للمتسابقين. وقوله: **«الإنسانُ صنيعةُ الإحسان»** (السابق، ص ١٧٠)، هذا مثل يضرب لكل من انقاد إلى غيره لمعروفه. وقوله: **«وينُسي سَحبان كلّما أبان»** (السابق، ص ١٦٨)، للرجل البليغ ويعرف بسحبان وائل. ولمزيد من الأمثلة وشرحها راجع المقامة الحجرية (السابق، ص ٥١١ـ٥٢٣).

الخاتمة

إن الحريري، وإن كان مقلّداً في مقاماته في كافة أُصولها وأُسسها، وهو يعترف بذلك صراحة، ويعترف كذلك بفضل البديع في السبق والإجادة، إلا أنه ليس من العدل أن نغمط الرجل حقّه فنحصره في دائرة التقليد فقط ـ وإن كان هذا هو الغالب على مقاماته ـ إذ قام الحريري بتقليد الهمذاني في كل ما يتعلّق بالمقامات ابتداءاً ببطلها وراويها الثابتين وقيامها على موضوع واحد يتكرر، وهو الكدية، وانتهاءاً بإغراقها بالمحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية، وخاصة السجع، والتشبيهات والاستعارات الكثيرة، والأحاجي والألغاز التي اعتبرها الهمذاني مقدرة وفنّاً، وتبعه الحريري في ذلك وسار على نهجه ونسج على منواله. لكن الحريري لم يتوقف عند الحدود التي رسمها الهمذاني، بل تخطّاها وزاد عليها من عنده، ولكن إضافات الحريري لم تكن خارج الإطار الذي رسمه الهمذاني، بل كانت ضمنه وفي حدوده.

وقد أشرنا في المقالة إلى بعض مظاهر الإبداع في *مقامات* الحريري، كالترتيب والتنظيم للمقامات، والالتزام بأُصولها؛ والإكثار من المحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية، وخاصة السجع والتجنيس الذي ابتكر له فنوناً واخترع له ضروباً؛ واستخدام بعض الأساليب البيانية المحددة كالتشبيه والتورية والاستعارة التي طغت على غيرها؛ والانتقال من أسلوب إلى آخر، والإغراق في التصنع والتكلف، إذ أولع الحريري بمظاهر التصنع والتكلف الغريبة في نثره، أو عُقَد بلاغية أراد منها إظهار مقدرته في نظم يعجز عنه الآخرون، الأمر الذي أوقعه في تعقيد لغوي ظهر في ولعه بالألغاز والأحاجي اللغوية والنحوية وتلاعبه بالألفاظ، حيث كان ذلك من مميزات الكتابة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، إذ عاش الحريري في النصف الثاني من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس.

❖❖❖

المصادر والمراجع

أ) العربية

- **القرآن الكريم.**
- ***نهج البلاغة*** (تحقيق صبحي الصالح). (١٣٩٥هـ). قم: هجرت.

١. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٩٢م). ***لسان العرب***. بيروت: دارصادر.

٢. بقّال، عبدالحسين محمدعلي. (١٣٧٦هـ. ش). ***المعجم المجمعي*** (ج ٥). طهران: مؤسسة الطباعة والنشر لجامعة طهران.

٣. الحريري، القاسم بن علي. (١٩٩٢م). ***مقامات الحريري***. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. ـــــــــــــــــــ. (د. ت). ***مقامات الحريري***. بيروت: دار صادر.

٥. الزمخشري، محمود بن عمر. (١٩٨٧م). ***مقامات الزمخشري*** (تحقيق لجنة من المحققين). (ط ٢). بيروت: دار الكتب العلمية.

٦. الشرّيشي، أحمد بن عبدالمؤمن. (د. ت). ***شرح مقامات الحريري البصري*** (تصحيح محمد عبدالمنعم خفاجي). بيروت: المكتبة الثقافية.

٧. ضيف، شوقي. (آ د. ت). ***الفن ومذاهبه في النثر العربي*** (ط ١١). القاهرة: دار المعارف.

٨. ـــــــــــ. (ب د. ت). ***المقامة*** (ط ٧). القاهرة: دار المعارف.

٩. عبدالحميد، محيي‌الدين. (د. ت). ***شرح مقامات الهمذاني***. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٠. الفاخوري، حنّا. (١٩٩٥م). ***الجامع في تاريخ الأدب العربي*** (ط ٢). بيروت: دار الجيل.

١١. المقدسي، أنيس. (١٩٧٩م). ***تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي*** (ط ٦). بيروت: دار العلم للملايين.

١٢. مجمع اللغة العربية في القاهرة. (١٩٩٦م). ***المعجم الوسيط*** (ط ٥). طهران: مكتب نشر الثقافة الإسلامية.

ب) الفارسية

١٣. حريرچي، فيروز. (١٣٤٥هـ. ش). ***پارسيان عربی‌نويس: عبدالحميد كاتب ـ بديع‌الزمان همدانی***. تهران: ارژنگ.

١٤. دهخدا، علی‌اكبر. (١٣٨٣هـ. ش). ***لغت‌نامه*** (مؤسسه لغت‌نامه دهخدا). (چ ٣). تهران: دانشگاه تهران.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی